

تفسير ابن كثير

فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ

قال الله تعالى : (فبشرناه بغلام حليم) وهذا الغلام هو إسماعيل - عليه السلام - فإنه أول

ولد بشر به إبراهيم - عليه السلام - وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب ،

بل في نص كتابهم أن إسماعيل ولد لإبراهيم - عليه السلام - ست وثمانون سنة ، وولد

إسحاق وعمر إبراهيم تسع وتسعون سنة . وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه

وحيده ، وفي نسخة : بكره ، فأقحموا هاهنا كذبا وبهتاناً " إسحاق " ، ولا يجوز هذا لأنه

مخالف لنص كتابهم ، وإنما أقحموا " إسحاق " لأنه أبوهم ، وإسماعيل أبو العرب ،

فحسدوهم ، فزادوا ذلك وحرفوا وحيدك ، بمعنى الذي ليس عندك غيره ، فإن إسماعيل

كان ذهب به وبأمه إلى جنب مكة وهذا تأويل وتحريف باطل ، فإنه لا يقال : " وحيد "

إلا لمن ليس له غيره ، وأيضا فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد ، فالأمر

بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار . وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق

، وحكي ذلك عن طائفة من السلف ، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضا ، وليس ذلك

في كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك تلقي إلا عن أخبار أهل الكتاب ، وأخذ ذلك مسلما من غير حجة . وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم ، وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد ذلك : (وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين) . ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا : (إنا نبشرك بغلام عليم) [الحجر : 53] . وقال تعالى : (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) [هود : 71] ، أي : يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب ، فيكون من ذريته عقب ونسل . وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير ؛ لأن الله [تعالى] قد وعدهما بأنه سيعقب ، ويكون له نسل ، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرا ، وإسماعيل وصف هاهنا بالحليم ؛ لأنه مناسب لهذا المقام .